

من كتاب "تبادل الأمتعة": قراءة في ديستوفيسكي (2) الفصل الثالث: "حركة العلاقات البشرية جدلا وامتدادا في الإخوة كارامازوف" (3 من 3؟)



نشرة "الإنسان" 2021/08/28
السنة الرابعة عشرة - العدد: 5110

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

نواصل اليوم عرض نقد الأخوة كارامازوف وأعتذر مكرراً لصدور هذا النقد مجزأ هكذا، لكنني اقتنعت أثناء مراجعتي أنه يستحق أن يقرأ ببطء، بل إنني أوصي أن نقرأ ما ينشر لاحقاً مع ما ينشر تباعاً، فأنصح بالبدء بما سبق نشره الأسبوع الماضي (نشرة السبت والأحد)

أنا أسف

.....

ثانياً: قضايا

(1) الأبوة، وقتل الأب:

لا تُذكر رواية كارامازوف إلا وتقفز مسألة قتل الأب على السطح، لكنني لم أر أولوية لهذه المسألة هكذا، لما يلي:

أولاً: لا يوجد في الرواية أب بالمعنى الوظيفي والنفسي أصلاً، ففيدور كارامازوف (الأب البيولوجي) كان: إما فرداً متفرداً مستقلاً تماماً، لذيماً متمركزاً حول ذاته، وإما ابناً ضعيفاً محتماً، بأى أب ممكن، آباءه كان أغلبهم من أولاده: فهو ابن أليوشا أصغر أبنائه، وابن جريجورى الخادم، وأحياناً ابن ديمتري ونادرا ابن إيغان.

ثانياً: إن ما أثير طول الرواية هو ظهور الرغبة في التخلص من الأب - كفضلة نافرة نتيجة ذاتيته وانفصاله، من هنا نفهم رغبة القتل من خلال "تفعيل" الواقع، وكأنها تحصيل الحاصل، أو الإزاحة المنطقية، اللهم إلا فيما يتعلق بمحركته التنافسية مع ديمتري، أما قتل الأب بالمعنى الأوديبى أو بمعنى صراع الأجيال فهو أمر آخر يتطلب حضور أب قوى جاثم ممثلاً للسلطة معيقاً للنمو، وبالتالي حافزاً على اختراقه، مثيراً لرغبة المحيطين المبهورين للتخلص منه، ولو بالقتل، أما هذا الأب المنتحى أصلاً، الإبن دائماً، الطفل لاهياً، فهو أبعد من أن يبرر قضية قتل الأب بالمعنى الأوديبى

ثالثاً: حتى وإذا دخلنا من مدخل التنافس على الأنتى الأم، نجد أن جروشكا لم تمثل أبداً، فلم يكن التنافس عليها هو تنافس أوديبى بمعنى أن ثمة أما حاوية وأباً قادراً مخيفاً.. وإنما كان تنافساً غريمياً متكافئاً غالباً.

رابعاً: إن الذى قتل الأب فعلاً هو ابن مشكوك فى بنوته، وكان السبب المعلن للقتل أبعد ما يكون عن

فيدور كارامازوف (الأب البيولوجي) كان: إما فرداً متفرداً مستقلاً تماماً، لذيماً متمركزاً حول ذاته، وإما ابناً ضعيفاً محتماً، بأى أب ممكن، آباءه كان أغلبهم من أولاده

أما قتل الأب بالمعنى الأوديبى أو بمعنى صراع الأجيال فهو أمر آخر يتطلب حضور أب قوى جاثم ممثلاً للسلطة معيقاً للنمو، وبالتالي حافزاً على اختراقه، مثيراً لرغبة المحيطين المبهورين للتخلص منه، ولو بالقتل

عقدة قتل الأب، وهو السرقة، مع احتمال استجابة لرسالة غامضة مقتحمة من إيفان.

من أضعف مواقف الرواية أن كشف ديستوفسكى عن هذه العلاقة الإيحائية قبيل انتحار سمردياكوف كشفا مباشرا ومكررا، وكان الأفضل أن تكون المسألة- إذا توافرت مقوماتها- بمثابة الجنون المُقحم Folie impose (من إيفان في سمردياكوف) وهو ما يمكن تناوله بطريقة أدق تشكيلا وأعمق إبداعا. أخيرا: الأب هنا ليس له أية علاقة بالمقولة الفرويدية من أن الأب هو الله بشكل أو بآخر، وبالتالي فلم يمثل إلحاد إيفان، أو حتى سمردياكوف قتل الأب الإله - مع أن المشكلة الدينية والإيمانية كانت ماثلة، بل ملحمة، طول الوقت، حيث كان الله - طوال الرواية - إما حاضرا، وإما مستغابا به، وإما مختزعا أو متهما أو ملاما بالإضافة إلى الشك والنفي.

إذن لم تكن عقدة الرواية برمتها هي قتل الأب، وإنما كان أصل الإشكالية هو انعدام حضور الأب أصلا، بالإضافة إلى قلب الأدوار ليصبح الأب ابنا.

للأمر بعد آخر وهو جماعية وعى الناس بالرغبة في، والموافقة على، "قتل الأب"، كجزء لا يتجزأ من مسيرة التطور، يظهر هذا بالألفاظ في حوار ليزا مع أليوشا.

- "الناس جميعا يستحسنون أنه قتله".

- "هم مقتونون بذلك مقتونون، صحيح أنهم يصيحون قائلين أن ذلك فظيع، ولكنهم في قرارة أنفسهم مقتونون، وأنا نفسى مقتونة أنا أول المفتونين"

جاء هذا عقب حوار في الصفحة السابقة (يقول):

أليوشا:

- ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة.

ليزا - جميع البشر يحبون الجريمة".

لعل هذا الحوار يوحي أن استقبال النقاد لقتل الأب في كارامازوف وتركيزهم عليه كان إستجابة لما في أنفسهم أكثر مما كان حادثا في الرواية.

(2)- آباء .. وآباء :

تعددت صور الآباء في الرواية تعددا مزعجا:

- بدءا بالأب زوسيمًا.
- ثم الأب أليوشا
- ثم الأب جريجورى (أب للجميع: ديمتري، فسمردياكوف، وأب فيدور بالذات، وللأخوين الباقيين حسب الحاجة).

• ثم الأب الطفل إيليوشا (فهو أب أبيه الكابتن سينجريف)

• ثم الأب كوليا. وهو أيضا والد أمه.

كما نلاحظ - مارين عبورا - تبادل أدوار الأب بين الأخوين إيفان وأليوشا.

أتقن ديستوفسكى رسم "هذه الزحمة الأبوية" وهو يتجاوز السن والميلاد، وهو يحسن رسم التفاصيل بما لا يدع مجالاً للشك في طبيعة الجانب الإيجابي من الأبوة، وهو العلاقة الراحية الحانية المسؤولة (الأبوية) بغض النظر عن مَنْ أكبر مِنْ مَنْ سنا، وقد طغا هذا الجانب غالبا على ما يرصد باعتباره السمات الأساسية للأبوة بما يصاحبها من إثارة التحدى وجدل الانفصال وصعوباته، فلم نر أباً من هؤلاء الآباء وهو "يمتلك" أو "يسيطر" أو "يمنع الاستقلال" بالشكل المألوف، اللهم إلا في بعض التنافس العادى مثل تنافس إيليوشا مع أليوشا، أو كوليا مع أليوشا وهو تنافس الإخوة أكثر منه تنافس الأب مع

هذا الأب المتنجى أصلا، الإبن دائما، الطفل لاهيا، فهو أبعد من أن يبرر قضية قتل الأب بالمعنى الأوديبى

إذا كانت هذه هي كُفَيْبَةُ ظهور دور الأب، فإن الأم لم تظهر ظهورا جليًا صحيحا أبدا، فهي إما غائبة، وإما متوارية في ظلمة علاقة خافتة، وإما مشوهة عاجزة، وإما ملتصمة مدحجة

أنى لم أجد لتهميش دور الأم في هذه الرواية دلالة خاصة، لا في قصة الكارامازوفية، ولا في قصة الدين والإيمان، ولا في أية قضية محورية أخرى

فربما تعمد ديستوفسكى أن يظهر الإيجاب من واقع تجسيد آثار السلج، تجسيدا بما هو... وليس بمعادلة مسطحة، بمعنى أن اختفاء الأم، أو انتحارها، أو سطويتها

الإبن.

الإثنان اللذان لم يقوما أصلا بدور الأب إلا فى أقل القليل هما فيدور الأب الحقيقى ، وديمترى الطفل الجامح.

(3) الأم (الأمومة)

إذا كانت هذه هى كيفية ظهور دور الأب، فإن الأم لم تظهر ظهورا جليًا صحيحا أبدا، فهى إما غائبة، وإما متوارية فى ظلمة علاقة خافتة، وإما مشوهة عاجزة، وإما ملتئمه مدعية.

فلنعدد الأمهات بشكل متعجل أيضا:

1- أم الإخوة الكارامازوفيين التى لم تظهر بجلاء إلا استنتاجا

أ- الأم أديلانيد: هاربة إلى زوج طفلى، ثم هاربة منه بالموت.

ب- الأم صوفيا: دمية، هشة بكل معنى الكلمة - يخطفها المرض مبكرا.

2- أم ليزا، السيدة هوخلاكوفا، حيزبون سطحية، لم نر من أمومتها إلا عاطفة مهترئة، وشفقة قاسية.

3- ثم أم كوليا، وهى أم مضحية فى ظاهر الأمر (لم تتزوج من أجل كوليا)، لكن عواطفها كما

ينعتها إنها هى من "عواطف العجول" (فى الأغلب).

4- لم يتبق إلا أم إيليوشا وهى أم معتوهة تماما، ليس نتيجة لتخلف ذهنى بقدر ماهو نتيجة لتدهور

عقلى ظاهر، وإن كان ديستوفسكى قد لعب بعتهها بقدره العارف أين وكيف يمكن أن يعثر على بؤر

الحكمة ودلالات الفطرة فى وسط زحمة وتشوش العته.

على أنى لم أجد لتهميش دور الأم فى هذه الرواية دلالة خاصة، لا فى قضية الكارامازوفية، ولا فى

قضية الدين والإيمان، ولا فى أية قضية محورية أخرى، وإن كان ثمة دور لصورة الأم كما وردت فى

كارامازوف فهو دور يعلن الأهمية التى نستنتجها من أثر الاختفاء أو الإنكار لما لا ينبغى أن يختفى أو

يُنكر، فربما تعمد ديستوفسكى أن يظهر الإيجاب من واقع تجسيد آثار السلب، تجسيدا بما هو ... وليس

بمعادلة مسطحة، بمعنى أن اختفاء الأم، أو انتحارها، أو سطحيته، أو بلهها كل ذلك كان وراء الدوافع

التي شكلت نوع العلاقات الأسرية التى ظهرت فى الرواية، سواء كانت علاقات حب أخوى يعوض فقدان

الأم وطفولة الأب، أو كانت تماسك القهر والذل فى عائلة إيليوشا، أو كانت الوحدة والتعويض فى حالة

كوليا.

أقوى موقف أموى وصلنى، كان نهاية أديلانيد أم ميتيا، فقد وصلنى فيه احتجاج قوى، وانسحاب

موقوف مدروس وكأنه هو هو انتحار الفتاة الرومانسية، فى الخلفية: حين نادها الجرف الجميل للعودة

إلى الرّحم الأرض (ما دامت الحياة هكذا!!) فاستجابت بانتحار متناغم- هكذا استقبلت موت أديلانيد بعد

هربها.

(4) الأخوة:

ثمّ نوعان من التآخى ظهرا طوال الرواية:

1- أخوة الدم، وهى الأخوة الحارة جدا بين الاخوة الثلاثة.(2)

2- أخوة الرأى أو العقيدة أو الهدف أو أخوة ألفة الانتناس بالحوار .

أما عن أخوة الدم فقد كانت شديدة الحرارة والترابط، والتقارب، والحركية برغم الاختلاف الجوهري فى

ظاهر الطباع، وفى عمق المعتقد وطبيعة التدين والموقف من الله، وفى طبيعة العلاقة بالحسيات والحياة،

وفى توجه الغايات، وفى منبع ومسار النشأة. كانت دوائر التماثل تعلن تارة، وتمارس دون إعلان تارة

أخرى، كما كان تبادل الأدوار واضحا، والتصارع جاهزا وقريبا من أول اعترافات إيفان لأيوشا شعرا فنثرا،

حتى نهاية الرواية وترتيب هرب ديمترى بواسطة أيوشا وإيفان.

ثمّ نوعان من التآخى ظهرا
طوال الرواية:

1- أخوة الدم، وهى الأخوة
الحارة جدا بين الاخوة الثلاثة
(2).

2- أخوة الرأى أو العقيدة
أو الهدف أو أخوة ألفة
الانتناس بالحوار

إن الوالد الطفل جمعهم حوله
بتنازله عن أبوته لهم، فأصبح
كل منهم مسئولا مستقلا بشكل
أو بآخر، وبالتالي تبنى كل أخ
أخويه

إن حركية وعيهم، خاصة وهى
تدور حول الدين والإيمان
ويجذب حركة الأرض إلى
السماء وبالعكس، كانب

حركية نشطة لدرجة أدت
إلى هذا التقارب الأخوي
الحار

الأمر الجيد الآخر الذى يؤكد هذا الحب الأخوى، بل ويعطيه نكهة متعالية، هو أننا لم نلاحظ أى تقارب بين الشقيقين أليوشا وإيفان أكثر من التقارب بين كل منهما (وخاصة أليوشا مع الأخ غير الشقيق ديمترى، وحتى شبه الجفوة بين ديمترى وإيفان كانت بسبب تنافسهما على حب كاتيا، أو بمعنى أدق بسبب ألعاب كاتيا التحتية، وليس بسبب ضعف الأخوة.

تفسير العلاقة الأخوية الحارة

ثمة أبعاد محتملة تفسر تلك العلاقة الحميمة والحارة بين الكارامازوفيين، ومن ذلك:

- 1- إن الوالد الطفل جمعهم حوله بتنازله عن أبوته لهم، فأصبح كل منهم مسئولاً مستقلاً بشكل أو بآخر، وبالتالي تبنى كل أخ أخويه (مع اعتبار أن ديمترى كان أقل ظهوراً فى هذا الدور)
 - 2- إن حركية وعيهم، خاصة وهى تدور حول الدين والإيمان وجذب حركة الأرض إلى السماء وبالعكس، كانت حركية نشطة لدرجة أدت إلى هذا التقارب الأخوى الحار .
 - 3- إن وجود أليوشا (بدفع مبدئى من الأب زوسيما ثم بتلقائية إنسانية ذاتية وليست دينية فحسب) وجود أليوشا المحورى الجاذب هذا إلى وسط الحركة الودية الأخوية هذه - كان له دلالة خاصة فى جمع الشمل فى حوار حى طول الوقت.
 - 4- إن التشابه فى الإيقاع والإندفاع (الكارامازوفية عامة) مع الاختلاف فى المواقف الفكرية مثلاً حول الدين وقضايا الوجود والناس، كان أبعث على الحفاظ على حيوية العلاقة تجاذباً وتنازلاً... معاً...
 - 5- وبالتالي فإنه بعكس المألوف فى الأسر العادية المدعية الحب الأخوى - كان ثمة حواراً معلناً وخفياً يجرى طول الوقت، بغض النظر عن محتوى الحوار: اتفاقاً أو اختلافاً.
- العلاقة الأخوية الحارة هذه لم تظهر مسطحة مثلاً فى إعلان "أنا أحبك، أنت تحبنى.. فقط" ولكن فى الرؤية والفعل طول الوقت.

أما الرؤية فمثالها:

أليوشا: "أحبك يا إيفان. ديمترى يصفك بأنك قبر أما أنا فأقول إنك لغز، ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن." (3)

وأما الفعل فقد وصل إلى أن مجرد وصول الأخ أليوشا قد حال دون إنتحار أخيه ديمترى.

"... إلهاما مباعاً، قلت لنفسى "هناك إذن إنسان أحبه أنا أيضاً"

"وهذا هو ذلك الإنسان، هذا هو الإنسان الذى أحبه هذا هو ، إنه أخى الأصغر." (4)

وعَدَلْ عن الانتحار.

أما أخوة الرأى أو العقيدة أو الدين - فلم تظهر نتيجة اتفاق فى كل ذلك، أو أى من ذلك، وإنما كانت دائماً نتيجة لصدق الحوار وعمقه واستدامته، فقد ظهرت فى أرضية موقف أليوشا عامة، ونصائح زوسيما، ثم فى أغلب العلاقات الحوارية بغض النظر عن السن أو الموقف الاتفاقي أو الاختلافى مثل: علاقة أليوشا وكوليا وعلاقة أليوشا وإيليوشا، وقد أسميتها أخوة - وليست صداقة - قصداً، باعتبار أنى أرجع بها إلى جذور طبيعتها حيث الندية والحوار وتبادل الرعاية هم الصفات التى تجعل من الإنسان أخواً.

5- أشكال ودلالات الإنتحار:

لم يكن الانتحار قضية جوهرية، طوال الرواية، بقدر مالم يكن القتل كذلك، رغم كثرة ذكركل القتل والتلويح به حتى لكأنه وشيك، ولكن ظهور الانتحار - كلما ظهر - كان له دلالاته الخاصة والدقيقة، وأشير إلى بعض ذلك فيما يلى:

أ- يلاحظ فى موت الفتاة الرومانسية، التى جاءت على ذكر زواج أديلثيد من فيدور، يلاحظ سهولة القرار وشاعرية الموقف، فالانتحار هنا ليس رفضاً للحياة، ولا هو مجرد "منظرة" رومانسية، وقد زواج

إن التشابه فى الإيقاع
والإندفاع (الكارامازوفية
عامة) مع الاختلاف فى
المواقف الفكرية مثلاً حول
الدين وقضايا الوجود والناس،
كان أبعث على الحفاظ على
حيوية العلاقة تجاذباً وتنازلاً
معاً...

أما أخوة الرأى أو العقيدة أو
الدين - فلم تظهر نتيجة
اتفاق فى كل ذلك، أو أى
من ذلك، وإنما كانت دائماً
نتيجة لصدق الحوار وعمقه
واستدامته،

حتى أنه فى وسع المرء أن
يتصور أنه لو كان هذا
الجرم الذى اختارته منذ
زمن طويل متعمسة له أشد

ديستوفيسكى هنا بين الدرامية (التشبه بأفيليا) والجديه حتى النهاية (ماتت فعلا).

قرأت أيضا فى هذا الانتحار لمحة أخرى شديدة الدلالة على طبيعة الانتحار، وهى ارتباط الانتحار بالجمال، وبالعودة إلى حضن الطبيعة، وقد اتضح صدق ودقة هذا الربط بما أعطاه ديستوفيسكى للجرف من قوة النداء الملزم:

“حتى أنه فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسة له أشد التحمس، لو كان أقل جمالا وروعة، ولو كان فى مكانه شاطئ منبسط عادى مبتذل، إذن... لأمكن ألا يقع حادث الانتحار.”⁽⁵⁾

ب- علاقة الفتاة الرومانسية بهذا الجرف الجميل الداعى إلى حضنه، هى تقريبا عكس علاقة إيفان بأخيه أليكسى، تلك العلاقة التى منعتة من الانتحار. هذا ما يشير إلى دقة ديستوفيسكى فى إلمامه بماهية العلاقة بالموضوع. وعلاقة ذلك بالانتحار، بمعنى أنه يستحيل الانتحار إلا إذا أُعِدِمَ “الموضوع” (الآخر) تماما قبل الاقدام على فعل الانتحار ولو بجزء من الثانية، فبعد أن نادى الشجرة إيفان (ربما فى مقابل نداء الجرف للفتاة الرومانسية)، وتجهز الحبل الصناعى (المنديل والقميص).. “نعم قررت أن أنتحر” إذا به يلقى أخاه فيتغير كل شئ، (أكرر: “قللت لِنَفْسِي” – هكذا أكمل إيفان – هناك إذن إنسان أحبه أنا أيضا. وهذا هو ذلك الإنسان هذا هو الإنسان الذى أحبه. هذا هو. إنه أخى الأصغر⁽⁶⁾” وعاد إلى الحياة.

الجرف فى حالة الفتاة الرومانسية ليس موضوعا وإنما هو رحم جاهز للإمتصاص فالتلاشى. ولكن أليوشا فى حالة إيفان هو موضوع وأى موضوع.

ج- انتحارات ديمترى (الأفكار والدفعات) عامة كانت دفعات نزوية إنفعالية غير محسوبة، وقابلة للمراجعة بسبب أو بدون سبب.

“وكنت حاملا سيفى فى تلك اللحظة فسئلته وودت لو أغمده فى صدري⁽⁷⁾”

“أترك تظن أنى سأنتحر لأننى لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردّها إلى كاترين؟... الخ.”⁽⁸⁾

د- فكرة الانتحار عند جروشكا كانت عابرة وعادية.

“قد هجرها الرجل الآخر، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله... وقد فكرت أن ترمى بنفسها إلى

الماء... فأنقذها ذلك العجوز، أنقذها.”⁽⁹⁾

ليس هذا انتحارا.

هـ - ثم يأتى انتحار سمردياكوف ليحتاج وقفة خاصة، فهو يعلن إعدام الموضوع الذاتى والخارجى فى

آن - فهو عدم يذهب إلى عدم، بل ربما من بعد آخر هو عدم يكاد يتخلق من جديد بتحقيق عدميته

(أنظر بعد - سمردياكوف)

6- العلاقة بالموضوع (جدل “الآخر”):

من هذا المدخل (الانتحار - العدم - الآخر) نتبين دقة إلمام ديستوفيسكى بمعنى العلاقة بالموضوع،

الأمر الذى يكاد يغمض على كثيرين من المشتغلين بالطب النفسى، بل وبالتحليل النفسى أحيانا، حين

يتصورون أن الموضوع هو شخص “حقيقي” فى الخارج، فى حين أن ديستوفيسكى يلتقط بمنتهى المهارة

ما أستطيع صياغته فى ألفاظ تقول:

إن الموضوع هو شكل ومحتوى (معا) لحركة مرنة بين الداخل والخارج، ولا بد من وجود علاقة

موضوعية حتى يمكن تحريك وجود “داخل حى”. حدس ديستوفيسكى يلتقط ذلك، وهو يصفه مرة باعتبار

أنه ذكرى صورة أم، ومرة على أنه لحظة حضور فى وصف أليوشا أيضا

“ تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه⁽¹⁰⁾ ”

التحمس، لو كان أقل جمالا وروعة، ولو كان فى مكانه شاطئ منبسط عادى مبتذل، إذن... لأمكن ألا يقع حادث الانتحار

علاقة الفتاة الرومانسية بهذا الجرف الجميل الداعى إلى حضنه، هى تقريبا عكس علاقة إيفان بأخيه أليكسى، تلك العلاقة التى منعتة من الانتحار

الجرف فى حالة الفتاة الرومانسية ليس موضوعا وإنما هو رحم جاهز للإمتصاص فالتلاشى. ولكن أليوشا فى حالة إيفان هو موضوع وأى موضوع

انتحارات ديمترى (الأفكار والدفعات) عامة كانت دفعات نزوية إنفعالية غير محسوبة، وقابلة للمراجعة بسبب أو بدون سبب.

ومرة على أنه حضور واعد، لكن بداياته تملأ الداخل الآن”

“ولتصبح إنسانا آخر، يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر. (11)”

إذن فالعلاقة بالموضوع تتمثل في وعى ديستوفيسكى بشكل فاعل موظف (قبل ميلانى كلاين وجانترب .. (12) الخ) وهو يستطيع أن يميز بين الموضوع الحقيقي والموضوع الذاتى بشكل محدد. كما أنه أحاط بأبعاد الموضوع فى الداخل والخارج بشكل قوى متميز، وفى الفقرات التالية نركز على الموضوع البشرى أساسا:

أول حصول صريح للموضوع بالداخل كان له وظيفة وقائية، هى الوظيفة المانعة للانتحار وقد تجسد ذلك واضحا فى لحظة لقاء أليوشا بإيفان التى أشرنا إليها حالا.

مثال آخر: نجده فى صورة أم أليوشا داخل أليوشا، تلك الصورة التى أشرنا إليها أيضا والتى تكرر استدعاؤها، وهى التى ظلت ماثلة له، وهو يؤكد حضورها المالى لوجوده، بما لا يمكن معه أن تعتبر مجرد صورة، أو ذكرى داخلية بالمعنى البديل.

الاتجاه الإيجابى، وهذا هو الأرجح، لأنه تمادى فى وصف البراءة حتى وصف بطله بالعجز الكلى عن المكر وهو يبتعد عن “الكلام قلة الأدب” (13)

لكن ديستوفيسكى عاد يؤكد إيجابية هذا الموقف وأنه ليس أبدا عدم مبالاة، فقد سمح هذا الموقف “الموضوعى” – من أليوشا لوالده – أن يطمئن إليه بالتالى يقول الوالد فيدور لابنه أليوشا: “أنت الإنسان الوحيد فى هذا العالم الذى لم يتهمنى ولم يُدنى. (14)” ...

يذكرنا هذا الحديث عن عالم شخص الداخل بالتأكيد على رفض مقولة أن الشخص عند ديستوفيسكى هم أفكار تتجسد، لأننا من هذا الضوء على الموضوع الداخلى يمكن أن يتضح لنا كيف أن الذات هى التى تحضر فى أفكار (15) الحد الفاصل بين الفكرة والشخص والصفة، يخفت أو حتى يمحى حين نقرب من الموضوع الداخلى / الخارجى معا.

ديستوفيسكى يتقن وصف الموقف الشيزيدى (حيث “لا موضوع” – بمعنى الهرب من الموضوع كلما لاح.. أو إنكاره أو ابتلاعه.. الخ) يتقن وصفه إتقانا هائلا كلما اقترب من وصف إيفان عامة، بل إنه بلغ من حذقه فى هذا الصدد أن جسد هذا الموقف فى أقوال شخص ثانوى لم يظهر فى الرواية أصلا وهو الطبيب الذى جاء ذكره على لسان الأب زوسيمما “يقول الطبيب الشاكي للأب زوسيمما.

”ولكننى لاحظت فى كل مرة أننى كلما ازدت كرها للبشر أفرادا، ازدادت حرارة حبى للإنسانية جملة. (16)”

ثم يستطرد:

“... لقد أرتضى أن أصلب فى سبيلها (الإنسانية) إذا بدا ذلك ضروريا فى لحظة من اللحظات، ومع ذلك لو أريد لى أن أعيش يومين متتاليين فى غرفة واحدة مع أى إنسان لما استطعت أن أحتمل ذلك، .. فمتى وجدت نفسى على صلة وثيقة بإنسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتى وتجور على حريتي. (17)”

أليس فى هذا معنى سارترى أن الآخرين هم الجحيم؟ وأيضا أليس هذا المعنى هو قريب لمعنى المثل المصرى الشائع “أحب الناس واكره طبعهم”؟

الفقرة التالية أوضحت علاقة أخرى بالموضوع، نهملها أو ننكرها علاقة نتجنبها فى الأغلب، مع أنها جزء لا يتجزأ من حركية العلاقة بالموضوع. الكره يمثل هذا الجانب الآخر للقضية: الكره علاقة قوية عكس الشائع من أنها علاقة سلبية، لكن يبدو أن هذا ليس واضحا تماما لديستوفيسكى، حيث لاحظت أنه يعتبر الكره سلبيا معظم الوقت، وهذا من مأخذ الإستقطاب الذى يقع فيه ديستوفيسكى كثيرا وليس

”فد هجرها الرجل الآخر، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله... وقد فكرت أن ترمي بنفسها إلى الماء... فأنقذها ذلك العجوز، أنقذته

إن الموضوع هو شكل ومحتوى (معا) لحركة مرنة بين الداخل والخارج، ولابد من وجود علاقة موضوعية حتى يمكن تحريك وجود “داخلى حى”. حذس ديستوفيسكى يلتقط ذلك، وهو يصفه مرة بالمتبار أنه ذكرى صورة أم، ومرة على أنه لحظة حضور هى وصفه أليوشا أيضا

رفض مقولة أن الشخص عند ديستوفيسكى هم أفكار تتجسد، لأننا من هذا الضوء على الموضوع الداخلى يمكن أن يتضح لنا كيفه أن الذات هى التى تحضر فى أفكار

دائماً، قد رجحت أن ذلك ربما يرجع إلى نوع مسيحيته غالباً (18) .

وقد أعطى ديستوفسكى وهو يتجول فى الرواية هذه العلاقة الشيزيدية حقها فى الوصف التفصيلى، وهو بقدر ما وصف أشكالها تطرق إلى بدائلها ونقائصها.

أ- فهو يعلن الحاجة الصريحة للاعتمادية على الآخر لحما ودما، وخاصة إذ تتعري هذه الحاجة صراحة بتأثير الخمر، ولكن بانثقائية دقيقة

“ففى تلك اللحظات إنما كان يجب أن يوجد على مقربة منه فى المبنى الملحوق على الأقل.... رجل يمكن أن يحميه عند الحاجة...”

“ممن يحميه؟ من إنسان مجهول...، ولكنه رهيب خطر.. كان لابد له حتما فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة من كائن آخر .” (19) “وكان فيدوركارامازوف يعنى بذلك الخادم العجوز جريجورى.

ب- بقدر ما يدرك ديستوفسكى أهمية وصدق هذه الاعتمادية -يستطيع أن يرصد نوعا آخر من العلاقة وهى “العلاقة الاتهامية” وهى علاقة شيزيدية أيضا:

“إن تلك الوعدة جروشنكا.. فى وسعها أن تزردك لقمة واحدة”.

ج- وإذا كانت “الثقة الأولى” (20) “التي ظهرت فى أليوشا كانت ذات علاقة بأمه وصورتها التي ظلت تحل فى وعيه فتملؤه، فإن اللا-ثقة (21) التي ظهرت من البداية فى سمردياكوف امتدت لتعلن أنه:

“وهو لا يحب أحدا على كل حال”. وهذه اللا-ثقة تؤدي إلى القسوة مع انتقاء الموضوع.

“وكان - سمردياكوف - أثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشنق قططا ثم يدفنها بعد ذلك محتفلا بدفنها احتفالا طقوسيا كبيرا. (22) “

من هنا جاء تحفظى على اعتبار سمردياكوف مجرد أداة لوعى إيفان البيغض، بل لعله قد قتل فيدور كارامازوف الأب كما كان يقتل القطط ثم الكلاب لا أكثر (ولا حتى بسبب السرقة) - ثم هو راح يقتل إيفان بآتهامه أنه القاتل الحقيقى، - ثم هو يتخلص من النقود، تخلصا مكافئا للانتحار، ثم هو يقتل نفسه بنفس السلاسة، ولكن مع ظهور احتمال خلاص وتطهر فى آن. (أنظر بعد)

إنتحار سمردياكوف له وضع خاص. فهو ليس يأسا، ولا جذبا، ولا رومانسية درامية، ولكنه أقرب ما يكون إلى التخلص من الموضوع كما ألمحنا سابقا. وإذا كان أليوشا، رغم انطوائيته قد نفى عنه

ديستوفسكى أنه حالم منطوي، أى نفى عنه شيزيديته بشكل ما، فإن كلا من إيفان وسمردياكوف كانا يمثلان التراوح بين اللاعلاقة والعلاقة التوجيسية الشديدة، وهو الموقف “الشيزيدى / البارنوي” معا. (23)

د- كأن ديستوفسكى هكذا يعرض لنا بصراحة شبه مباشرة مشكلة الثقة الأساسية، فى مقابل التوجس الأساسى،، (24) Basic trust versus Mistrust إذ يعرض أليوشا فى مقابل سمردياكوف.

أما موقع ديمترى وإيفان على متدرج الثقة: اللا-ثقة فهو أقل وضوحا، وإن كان يمكن أن نضع ديمترى فى موقف أقرب إلى الثقة من إيفان، دون إبداء أسباب

كذلك غير واضح لماذا التقط أليوشا الثقة الأساسية من أمه، وهو الأصغر دون إيفان. هل يا ترى يرجع ذلك إلى أن الطفل الأكبر، ناتج علاقة زوجية من هذا النوع، (هرب اختطافى، فتسليم دليل، فكراهية رافضة)، هو الذى يكون المسقط الأهم لمشاعر الإحباط والإهمال والإنكار؟ وبالتالي ينمو جافا فارغا؟ ثم

يأتى الطفل الثانى الأصغر بعد أن يكون الأكبر قد امتص كل مصائب الإسقاط والاستعمال، يأتى الأصغر فيقوم بدور الطفل الحقيقى، فيحظى بقدر كاف من “الشوفان” “والدفاء” ومن ثمَّ بالقدر المناسب من الثقة الأساسية.

هـ - ثم لا أعرج كثيرا إلى سائر العلاقات فى الأبعاد المختلفة والمحتملة، لأن ديستوفسكى قد عرض بانوراما من العلاقات لم ينس منها حلقة واحدة ناقصة، لكننى أشير بوجه خاص إلى علاقة كولييا بأمه،

لكننى لاحظت فى كل مرة
أننى كلما ازدادت حرما
للشعر أفرادا، ازدادت حرارة
حبى للإنسانية جملة

“... لقد أرتضى أن أطلب
فى سبيلها (الإنسانية) إذا
بدأ ذلك ضروريا فى لحظة
من اللحظات، ومع ذلك لو
أريد لى أن أحمش يومين
متتاليين فى غرفة واحدة مع
أى إنسان لما استطعت أن
أحتمل ذلك

منى وجدت نفسى على صلة
وثيقة بإنسان آخر أحسست
بأن شخصيته تصدم ذاتى
وتجور على حريتي

حيث أصبح كوليا مستهدفا لعواطفها الفجة السطحية التي أسماها "عواطف العجول" وليس حب الأم، فكان ما كان. لم يكن كوليا موضوعا لحب أمه في ذاته، بل أصبح بديلا وملجأ واعتذارا ضد أية علاقة جديدة ناضجة محتملة يمكن أن تنشئها الأم مع مدرس كوليا مثلا.

وبعد (مرة أخرى)

أرجو أن تسمحوا لي بالتوقف عند هذه النقطة ونكمل غدا بدءًا بالتركيز على الكاتب وهو يشرح لنا النفس الإنسانية من خلال إبداعه الفائق.

وأنا أستمتع أن تقرأوا الرواية قبل المضي في قراءة النقد والرواية موجود تحت أمركم في الموقع [بهذا](#)

[الرابط Link](#)

أو على الأقل أن تتابعوا الأجزاء من النقد التي سبق نشرها هنا

[الايخوة كارامازوف 1 .. دوستويفسكى](#)

[الايخوة كارامازوف 2 .. دوستويفسكى](#)

[الايخوة كارامازوف 3 .. دوستويفسكى](#)

- [1] يحيى الرخاوى " تبادل الأقنعة " دراسة في سيكولوجية النقد) الهيئة العامة لقصور الثقافة (2006)
- [2] لا أخفى أنى افتقدت الأخت البنت اللهم إلا فى عائلة إيليوشا، ومع ذلك لم يكن ظهورها كاف- فى حين أن كاتيا وأختها لم يكن لهما أخ- وبالتالي لم أستطع أن أتقدم خطوة نحو سبر غور دور الأخت بالذات عند دوستويفسكى فى كارامازوف، وإن كان أكثر وضوحا فى روايات أخرى، لكنه يظل باهتا أيضا.
- [3] ص 49 جـ 2
- [4] ص 339، 34. جـ 1
- [5] وقد ظهرت صورة مشابه فى حادث مشهور فى مصر فى الثمانينات فى حالة م. ع (قاتل والده أستاذ الجامعة ووالده المذيع) حين قطع هذا الشاب حوالى ثلاثمائة كيلوا متر بعد قتل والديه، لينفذ الإنتحار فى حوض صخره يحبها، وسبق أن صادقها وحاورها على شاطئ رأس البر. نظرت للأرض الرحم الأم، ناداها الهدهد، فتذكرت العش المجدول، طارت مثل يمامة، تبحث عن صدر وليف لم يولد أبدا، وتهادت فى زفة عرس... الخ (وانتحرت.)
- [6] يحيى الرخاوى: (الموسوعة النفسية "انتحار") مجلة الإنسان والتطور الفصلية - عدد أكتوبر 1987- مارس 1988
- [7] ص 521 جـ 1
- [8] ص 261 جـ 1
- [9] ص 552 جـ 3
- [10] ص 261 جـ 2
- [11] ص 552 جـ 3
- [12] ص 35 جـ 1 ونذكر هنا أمرين: الأول: هو علاقة مدرسة العلاقة بالموضوع بروادها من ميلانى كلاين إلى جانتر، بهذه الرؤية الداخلية، والتي لم تأخذ حقيها فى التطبيق الفعلى حيث تركز الأمر على الموضوع الخارجى، والثانى هو رحلة الصوفى حتى "يرى وجه الله" فى الداخل الخارج. لذلك وجب التنويه.
- [13] ص 48 جـ 1
- [14] جـ 1
- [15] حتى أننى ذهبت لاحقا إلى مدى أن أفترض أن الأفكار (الحقيقية) هى ذوات (بيولوجية) وليس العكس، صحيفة روزاليوسف اليومية أعداد (13، 27 يناير 2006) وما بعدها

الكراهة علاقة قوية عكس
الشائع من أنها علاقة سلبية،
لكن يبدو أن هذا ليس
واخدا تماما لديستويفسكى

لاحظت أنه يعتبر الكره سلبيا
معظم الوقت، وهذا من مأخذ
الإستقطاب الذى يقع فيه
ديستويفسكى كثيرا وليس
دائما، قد رجحت أن ذلك ربما
يرجع إلى نوع مسيحيته غالبا

قد أعطى ديستويفسكى وهو
يتجول فى الرواية هذه العلاقة
الشيزيدية حقما فى الوصف
التفصلى، وهو بقدر ما
وصفه أشكالمنا تطرق إلى
بدائلها ونقائصها.

من أعداد.

- [16] ص 127 ج1 وقد فضلت استعمال لفظ شيزيدي ترجمة للفظ Schizoid وذلك بدلا من اللفظ الشائع وهو شبه الفصامية لأن ما تعنيه كلمة "شبه" ليس صحيحا، فبالرغم من أن ثمة علاقة بين الفصامي، والشيزيدي، فإنها علاقة نقيضية في معظم الأوقات أي أن الشيزيدي هو عكس الفصامي سلوكيا، رغم أنه الشيزيدي يستهدف أن يكون فصاميا أكثر من غيره. 2.6 - [17] ج1

- [18] والأب زوسيمما يروج لحل هذا الموقف الشيزيدي بما أسماه الحب الفعال (الذي سوف يأتي تعريفه في مكان آخر).

2.6 - [19] ج1

[20] - Basic trust

[21] - Mistrust

- [22] ص 271 ج1

- [23] استعمال كلمة شيزيدي schizoid أفضل من استعمال الترجمة "شبه فصامي" لأن، كما أن تلام الموقف الشيزيدي مع الموقف البارنوي.

[24] رغم أن إريك إريكسون لا ينتمي إلى مدرسة العلاقة بالموضوع إلا أن موقفه كرائد لمحاولة التوفيق بين ما هو بيولوجي وما هو إجتماعي، ورسمه الدقيق لعصور الانسان الثمانية وإعادة الولادة، يظل هذا وذاك في الإطار المرجعي الذي استلهم منه رؤيتي للعلاقة بالموضوع وخاصة في المرحلة الأولى للتطور التي أسماها إريكسون الثقة الأساسية في مقابل اللاتقة Basic trust Vs Mistrust وعلى أي حال سوف يأتي ذكر ووصف العلاقة بالموضوع مرة ثانية، وأنا أصف الداخل/الخارج من خلال عرض الشخصيات وخاصة شخصيتي أليوشا وسمردياكوف.

إرتباط كامل النص:

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%86-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%aa%d8%a8%d8%a7%d8%af%d9%84-%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d9%86%d8%b9%d8%a9-%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%a1%d8%a7%d8%aa-%d9%81%d9%89-%d8%af%d9%8a%d8%b3-5/>

إرتباط كامل النص مع المقتطفات:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD280821.pdf>

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2021 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار العاشر)

الشبكة تدخل عامها 21 من التأسيس و 19 على الويب

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

اشتراكات العضوية بموسسة العلوم النفسية العربية للعام 2021

اشتراكات العضوية

عضوية "الشريك الفخري الماسي المميز"

عضوية "الشريك الفخري الماسي"

عضوية "الشريك الشرفي الذهبي"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

إنتحار سمردياكوف له وضع خاص. فهو ليس بأسا، ولا جذبا، ولا رومانسية درامية، ولكنه أقرب ما يكون إلى التخلص من الموضوع

لا أخرج كثيرا إلى سائر العلاقات في الأبعاد المختلفة والمتنوعة، لأن ديستويفسكي قد عرض بانوراها من العلاقات لم ينس منها حلقة واحدة ناقصة